العرب القدماء والكرم

للدكتور أحمد الحوفى

بعض القضايا من البداهة بحيث لا تفتقر إلى تدليل أو إثبات كهذه القضية التى نتناولها اليوم .

لكننا اضطررنا إلى التدليل على ما لا يحتاج إلى تدليل لأن بعض الشاكين والمشككين ، فى كل ميزة للعرب ، يرون أن كرم العرب كان نادرا ، وإلا ما مدح الشاعر من أعطاه أو كساه أو غذاه ، لأن هذا المدح نفسه دليل على مخالفة المألوف من شح وبخل .

ولكن الحق غير ذلك ، لأن الكرم كان شائعا فيهم ، جبلتهم البيئة عليه ، لأنها شحيحة بالزاد ، وهم بين حل وترحال ، وكل منهم معرض لأن ينفد زاده ، فهو يكرم ضيفه اليوم لأنه سيضطر إلى أن يضيف فى يوم ، وهذا نوع من التضامن الاجتماعى غير مكتوب .

ثم إن العربى يكرم لأنه ذو أريحية ، يسعد بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف ، والمال فى نظره وسيلة إلى حسن الأحدوثة وطيب الثناء وكسب المحامد .

ولهذا عابوا قيس بن عاصم ، لأنه أوصى بنيه بحفظ ماله ، والعرب يجدون فى هذه الوصاة قبحا يتنافى والسيادة والشرف .

قال حاتم :

يقولون لى أهلكت مالك فاقتصد

وما كنت لولا ما تقولون سيدا

وإذا كانت المبالغة قد تطرقت إلى بعض صور من كرمهم وقصص كرمائهم التى حفلت بها كتب الأدب والتاريخ ، فإنها على ما بها من مبالغة وخيال من الأدلة على أصالة الكرم فى نفوسهم وشيوعه بينهم .

وليس معنى شيوع الكرم بينهم أنهم برئوا جميعا من البخل ، فإن دراسة شعرهم وتاريخهم وأخلاقهم تؤكد أنه كان فيهم بخلاء كما كان فيهم شجعان وجبناء وحلماء وسفهاء وأعفة وفجار ، وهذا هو الطبيعى فى كل مجتمع ، وحسبى أن أذكر طرفا من مظاهر كرمهم :

١ — فرحوا بالضيف وأعزوه ، واحتفوا

به ، حتى صار بعضهم كالعبد لضيفه ، قال حاتم :

وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويا

وما فىّ إلا تلك من شيمة العبد

وأكرم عروة بن العبد العبسى ضيفه بالسهر معه ، وبالحديث الطيب الذى يشعره أنه فى داره :

فراشى فراش الضيف والبيت بيته

ولم يلهنى عنه غزال مقنع

أحدثه إن الحديث من القِرى

وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

ونجد عمرو بن الأهتم يرحب بضيفه بما يرحب به الكرماء اليوم :

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا

فهذا مبيت صالح وصديق

٢ — وسارعوا إلى السخاء على اليتامى والأرامل والبائسين والسائلين ، وهم لا ينتظرون ثناء يذيع ولا يمنون بما صنعوا ، قال أوس بن حجر فى رثاء فضالة بن كلدة :

لقد ارتحلت فمن ذا الذى يتعهد الأرامل من بعدك ؟ ومن ذا الذى يكسوا العرايا ويطعم الجياع ؟ :

أبا دليجة من يَوصى بأرملة

أمْ مَنْ لأشعث ذى طمرين طملال

وكانوا يباهون بسعة الجفان ، لأنها تدل على كثرة الطعام وكثرة الآكلين ، قال أبو قردودة فى رثاء ابن عمار :

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا

ومنطقا مثل وشْى اليمنة الحبره

٣ — وكانوا يحرصون أشد الحرص على الكرم إذا كفت السماء عن المطر ، فأجدبت الأرض ، لأن الوقت ضنك يسول لكل امرىء أن يحتفظ لنفسه بماله وطعامه ، فالكرم فى هذا المأزق كرم مضاعف جدير بالتقدير ، قالت الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

وإن صخرا لكافينا وسيدنا

وإن صخرا إذا نشتو لنحّار

ولم تكن مفخرة العربى بأن يقدم لضيفه طعاماً كثيراً لتزيد على مفخرته بأنه جاد بأنفس ما يملك ، قال أبو هلال العسكرى : وقد علمت أن حاتما وكعبا وهَرِما لم يجعلوا أمثالا فى الجود ، لأن عطاياهم عظيمة القدر ، فقد كان الواحد منهم يطعم ضيفا ، أو يهب بعيرا ، أو يعطى عددا من الشاء ، ولكن ذهب صيتهم فى السماح ، لأنهم كانوا يعطون وهم محتاجون ، وكان عطاء الرشيد والبرامكة والمأمون والأمين فى اليوم الواحد أكثر من جميع ما أعطاه أولئك فى جميع أيامهم ، ولم يضرب بواحد من هؤلاء المثل كما ضرب بأولئك ، فهذا يدل على أن الناس استحسنوا منهم بذلهم مع ضيق أحوالهم وقلة ذات أيديهم ، فجعلوهم أمثالاً مضروبة لكل من استغربوا فعله .

٤ — ومما يدل على كلفهم بالكرم أنهم كانوا يهدون الضيوف إلى أماكنهم فى الصحراء وكانوا يرشدونهم بالنار التى يوقدونها للقِرى أو لإنضاج الطعام أو للاستدفاء ، قال حاتم لغلامه فى ليلة باردة الريح :

أوقِدْ فإن الليل ليلٌ قَرُّ
والريح يا غلام ريح صِرُّ
عَلَّ يرى نارك مَن يمر
إن جلبتَ ضيفا فأنت حرُّ

وكانوا يهدونهم بنباح الكلاب ، ولهذا كنوا عن كرم الرجل بجبن كلبه، لأنه إذا ما رأى الغرباء كف ، فقد اعتاد أن يطرق الدار غرباء ، قال أحدهم فى الوصية بكلب له :

أوصيك خيرا به فإنّ له
خلائقا لا أزال أحمدها

يدل ضيفى علىّ فى غسق الـ
ـليل إذا النار نام موقدها

٥ — وإذا كان من طبائع النساء فى كل جيل وفى كل قبيل أنهن أحرص على الإنفاق الأُسرى من الرجال ، فإن كثيرات من الزوجات غضبن من كرم أزواجهن ، ووجهن اللوم لهم على ما بدا فى عيونهن سرفا، ولكن الرجال لم يعبأوا بهذا اللوم، بل إنهم آثروا الفقراء على أنفسهم وعلى عيالهم ، حدّثت نوار امرأة حاتم الطائى أن سنة مجدبة أصابتهم ، وفى ليلة كان صبيتهم يتضاغون جوعا ، فاجتهد حاتم ونوار فى إسكاتهم ، ثم جعل يعلل زوجته بالحديث، فعرفت أنه يسرى عنها ، فتناومت ، وفى آخر الليل جاءت إلى حاتم جارة تشكو إليه جوع بنيها فقال لها : أحضريهم سريعا فقد أشبعك الله وإياهم ، فلم تلبث أن أقبلت تحمل اثنين ويمشى إلى جانبيها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها ، فقام حاتم إلى فرسه فذبحها ، ونادى فى الحى فهبوا جميعا ، واجتمع القوم على اللحم يشوون ويأكلون .

أما حاتم فقد التفع فى ثوبه ، وجلس فى ناحية ينظر ، وما ذاق قطعة مما ذبح وقال :

مهلا نوار أقلى اللوم والعذلا
ولا تقولى لشىء فات ما فعلا

ولا تقولى لمال كنت مهلكه
مهلا وإن كنت أعطى الإنس والخبلا

يرى البخيل سبيل المال واحدة
إن الجواد يرى فى ماله سبلا

٦ — وكانت لبعضهم فلسفة صائبة قائمة على بعد النظر والتجربة ، فهم لا يرون مدعاة للبخل ، لأنهم إذا عاشوا فلن يموتوا جوعا ، ولأن المال الذى يتركونه من ورائهم سيرثه غيرهم ، وقد يكون من

الورثة عدو يتلهف ويتشوف ، وخير لهم أن يخلفوا وراءهم ذكراً طيبا حميدا ، قال طرفة :

أرى قبر نحّام بخيل بماله
كقبر غوى فى البطالة مفسد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الفاحش المتشدد (١)

وقال حاتم :

أهُن للذى تهوى التلاد فإنه
إذا مت كان المال نهباً مقسما

ولا تشقين به فيسعد وارث
به حين تغشى أغبر اللون مظلما

قليل به ما يحمدنك وارث
إذا ساق مما كنت تجمع مغنما

٧ — أما البخل فقد أبغضوه ، وأبغضوا البخلاء ، وهجوهم ، وحسبنا قول الأعشى :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم
وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا (٢)

وقول عروة بن الورد لخصمه إن إناء عروة مباح للآكلين على حين أن إناء هذا الخصم له وحده ، وإذا كان عروة قد هزل واصفر لونه ، فإن السبب فى هذا أنه قسم طعامه على بطون شتى ، وصبر على الجوع ، وقنع بالماء البارد على غير طعام :

إنى امرؤ عافى إنائى شركة
وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

أتهزأ منى إن سمنت وأن ترى
بوجهى شحوب الحق والحق جاهد

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

٨ — ومن هذا وأمثاله - وهو كثير جدا - نعلم أن العرب كان فيهم كرماء كما كان فيهم بخلاء ، لكن الكرم كان فضيلة ، وكان شائعا ، وكان المفتخرون بالكرم والمادحون به صادقين فى فخرهم وفى مدحهم ، فكان حاتم الطائى صادقاً فى فخره بأنه سيد ماله ، فلا سلطان لماله عليه كسلطانه على الأشحاء ، بل إنه ينفق ماله فى الخير وفى فك الأسرى ، وفى إطعام الجوعى وفى إغاثة المحاويج :

إذا كان بعض المال ربّاً لأهله
فإنى بحمد الله مالى معبد

يفك به العانى ويؤكل طيبا
ويعطى إذا منّ البخيل المصرد

احمد الحوفى
عضو المجمع

---

(١) : نحام : بخيل . يعتام : يختار . الفاحش : البخيل
(٢) المشتى : فصل الشتاء والجدب . غرثى : جياع . خمائص : خاويات البطون .